الأثر الحضاري في شعر يحيى بن حكم الغزال الأندلسي (ت ٢٥٠هـ) غزله أنموذجًا

The cultural impact on the poetry of Yahya bin Hakam Al-Ghazal Al-Andalusi : (d. 250 AH) A model

أ.د عبد الحسين طاهر محمد الربيعي
جامعة سومر- كُليّة التربية الأساسية

أ. م .د بشرى عبد عطية الجبوري
جامعة بغداد - كُليّة الزراعة

Prof. Dr. Abd al-Hussein Taher Muhammad
Sumer University, College of Basic Education

Dr. Bushra Abd Attia Al-Jubouri
University of Baghdad

المستخلص :

الشاعر الأندلسُي يحيى بن حكم الجيّاني المشهور بالغزال، المتوفى (٢٥٠ هـ) من الشعراء الذين فُقِدتْ دواوينهم بعد جمعها، ولم يتمكنْ مَنْ تصدّى لتحقيق ديوانه إلّا على العثور على النزر اليسير مما تناثر في المصادر "وما ضاع من شعره أكثر مما بقي منه، وغابَ عنّا من أخباره أكثر مما وصلَ إلينا ".

بيَد أنّ ما تبقّى من شعره، وعلى الرُّغم من قلته، يظهرهُ لنا شاعراً مختلفاً في حياته ومذهبه، الشعري، ولعله كان- في شخصيته وشعره، خيرَ مَنْ يمثل حياة الأندلسيين في نهاية القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الهجري، وليس مصادفة أن يقع اختيار الأمويين عليه ليكونَ سفيرًا لبلاد الأندلس في بلدان أوروبية مهمة وفي القسطنطينية، بل لما توافر في شخصيته من سمات ظاهرية ودبلوماسية أهّلتهُ للنهوض بهذه المهمة الحضارية.

لذا حاول الباحثان، عبر تأمُّل ما تبقّى من شعره أن يُبرزا معالم هذه الشخصية الأدبية المائزة في تجاوزها الإطار المألوف في الحركة والتعبير عن الجانب الحضاري الأندلسي مستندين إلى تكوينه الثقافي ،وحبّه للأسفار، والقدرة التواصلية الدبلوماسية ،واستيعاب ذاكرته للصور الحضارية ،وآفاق الحياة الاجتماعية المختلفة.

وقد أظهر الشاعر كلَّ ذلك، عبر فنه الشعري المتسم بواقعية التعبير والسهولة، والبعد عن الصناعة والتزويق، والميل إلى النقد الاجتماعي، مع غير قليل من النظرات الفلسفية والصدق الوجداني.

وبعدُ: فإنَّ خصوصية شعر الغزال تتجلّى في لغته وأساليبه ذات الطابع الحضاري التي تراءت عبر أغراضه ومعانيه، اذ وجدناها متمحورةً حول مرتكز أساسي أخذ شكل الظاهرة التي اسميناها الأثر الحضاري في شعره.

الكلمات المفتاحية الكلمات المفتاحية: الأثر الحضاري، غزل، يحيى الغزال، الشعر الاندلسي.

Abstract:

The Andalusian poet Yahya ibn Hakam al-Jiyani, famous for al-Ghazal, who died (250 AH), one of the poets whose collections were lost after collection, and no one is able to address the investigation of his collection except a small amount of finding that is scattered in the sources, and" what was lost from his poetry is more than what remained of it, and what was missing of his news is more than what has come to us".

However, what remains of his poetry, despite its scarcity, shows us a different poet in his life and the poetic doctrine, and perhaps he was - in his personality and poetry, the best who represents the life of the Andalusians at the end of the second century and the first half of the third century AH, and it is not a coincidence that the Umayyads elected him to be an ambassador of Andalusia in important European countries and in Constantinople, but because of the apparent and diplomatic features in his personality that qualified him to advance this civilized task.

Therefore, the researchers try, by contemplating the remainder of his poetry, to highlight the features of this distinguished literary figure in transcending the familiar framework of movement and expressing the Andalusian civilizational aspect, based on his cultural formation, his love for travel, his diplomatic communication ability, and his understanding of cultural images and the various horizons of social life.

The poet showed all this through his poetic art, which is characterized by the realism of expression, ease, staying away from artificiality and embellishment, and the tendency to social criticism, with quite a few successful philosophical views and emotional honesty.

After that, the specificity of Ghazal's poetry is evident in its language and methods of a civilized nature, which were seen through its purposes and meanings, as we found it centered around a basic foundation that took the form of the phenomenon that we call the civilizational effect in his poetry.

Keywords* : *Civilization , Effect , poetry , Yahya al-Ghazal, Andalusian.

تمهيد:

الحضارة في اللغة والمفهوم الاصطلاحي

الحضر غيرُ البدو، والحاضرُ خلافُ البادي، والحاضرة خلافُ البادية، وهي المدن والقرى والريف، يقال: فلانٌ من أهل الحاضرة، وفلان من أهل البادية، وفلان حضري، وفلان بدوي[١]، وسميت الحضارة كذلك، لأنَّ أهلَها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[٢]. والبدوي هو المقتصر على الضروري من العيش، الضروري أصلٌ والكمال فرع منه .

الحضارة في الاصطلاح :

إنّه مفهوم واسعٌ لا يُحَدُّ بتعريفٍ، لأنّ جوانيهُ وما يتصلُ بها لا حدود لها، لكن على سبيل المقاربة، فقد عرّفها قديماً ابن خلدون قائلاً :" هي التفنّنُ في الترف واستجادة أحواله ...."

ومما له صلةٌ وطيدة بما نحنِ بصدده أنَّ الحضارة الأندلسية الإسلامية تجلّت بازدهار الآداب، والعلوم ،والفنون ،وإنشاءَ المكتبات، فضلاً عن الإكثار من إنشاء الطرق ،والجسور، والمساجد، والقصور، وقد برز الأندلسيون كذلك في المجالات الحربية والجغرافية والفلكية والطبية، وكان لهذه النهضة العلمية آثارُها البالغة على أوروبا.[٣]

ويرى الباحثان أنَّ للأدب الحضاري أثراً بارزاً في انتشار الحضارات في المجتمعات، ويقال : إنَّ زيت الحضارة ومشكاتها، عبْرَ الأجيال والعصور هو الأدب الحضاري[٤]

وحاصل ما نريد قولَه في هذه اللمحة، أنَّ الأثر الحضاري ما يُلاحظُ على الإنسان من أسباب رغد العيش، أو التعامل، أو السلوك الذي يؤدي إلى الرفاه والنعيم ويهجر الخشونة.

٢- الشاعر يحيى الغزال مولده ، نسبُهُ ، نشأتُهُ، ثقافتُهُ ، ما قيل في شخصيتهِ وشعرهِ.

اعتنت الدراسات الأدبية الحديثة بشخصية الغزالِ وشعرهِ ومجريات حياته، لاسيّما أسفارهُ إلى أوروبا أو القسطنطينية أو تغريبه عن الأندلس إلى الشرق.

ومهما يكن من شيء فإنَّ الثابتَ والمدوَّنَ في المصادر الموثوق بها، وفيما نتأمله عبر قراءتنا ما تبقى من شعره لا يبيحُ لنا أكثر من التحدّث عن حياته ومن ثُمَّ الإشارة إلى شاعريته آخذين بالحُسبان ما يُفْهمُ من نصوصهِ

---

[١] يُنظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق د. أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ،ط ٤، ١٩٨٧، مادة (حضر)

[٢] يُنظر: لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور(ت ٧١١هـ) إعداد و تصنيف يوسف خياط، ،ونديم مرعشلي، دار لسان العرب بيروت، ط٣ ، ١٩٧٠، ، مادة (حضر)

[٣] ينظر: الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا - توفيق سلطان الفكيكي ، بحث مجله ثقافتنا للدراسات والبحوث المجلد ٥ ، العدد٢٠ ،٢٠١٠ :١١٩. .

[٤] ينظر : في الأدب والحضارة ، محمد الحسناوي: المكتب الإسلامي بيروت، دار عمار عمان ،ط١ ،١٩٨٠ :٣٧- ٣٨.

الشعريةِ المصحوبة بتعليقات المؤرخين أو ما ورد عنه من مؤرخين - متحفظين على شاكلة الحميدي (ت ٤٨٨هـ) في كتابه (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، في باب من اسمه (يحيى) رقم الترجمة (٨٨٨) إذ قال: " يحيى بن حكَم المعروف بالغزال بتخفيف الزاي، رئيس، كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو مع ذلك جليل في نفسه، وعلمه، ومنزلته عند أُمراء بلده، أرسلهُ بعض ملوك بني أميُّةَ بالأندلس رسولاً إلى ملك الروم، وفي ذلك يقول عند ركوبه البحر من قصيدة أنشدَنيها أبو محمد علي بن أحمد، قال أنشدني أبو عبد الله محمد بن عمر بن مضاء للغزال[٥]

قالَ لي يَحيى وَصِرنا بَينَ مَـــوجٍ كَالجِبالِ

وَتَوَلَّتنا رِيـــــــاحٌ مِـــن دَبورٍ وَشَمالِ

شَقَّتِ القِــلعَينِ وَانبـ ـتْ عُرى تِلكَ الحِبالِ

وَتَمَطّـى مَلَكُ المــو تِ إِلَينا عِـــن حِيالِ

لَم يَكُن لِلقَومِ فينـــا يا رَفيقي رَأسُ مــالِ

وذكر له أشعاراً أخُرى.

ومما قاله عنه "و شعرهُ كثيرٌ مجموعٌ ،جمعهُ حبيب بن أحمد وقال: إن مولدَهُ سنة ستٍ وخمسين ومائة، في إمارة عبد الرحمن بن معاوية، وعاش باقي إمارته، وإمارة هشام، وإمارة الحكم، وإمارة عبد الرحمن، ومات في إمارة الأمير محمد سنة خمسين ومئتين وهو ابن أربع وتسعين سنه[٦]، ولعلَّ فيما قدَّمه المؤرِّخ الحُميدي كافٍ ومغنٍ للباحثين في رسم ملامح شخصيّة الغزال والإشارة إلى سفارته ومعاصرته للأمراء الأمويين الخمسة، والإشارة إلى ديوانه المجموع وجودة شعره والحُظوة التي لقيها لدي أُمراء بني أمية.

أمّا فيما يخصُّ ألقابهُ، فالغزال لقبهُ المشهورُ، وقد قال المؤرِّخ بن عذاري "دخل الغزال الشاعر على الأمير عبد الرحمن، فقال الأمير: جاء الغزال بحسنِه وجماله". فقال له الوزيرُ: أجزْ ما بدأ به الأميرُ. فقال الغزال:

قـــالَ الأَميرُ مُداعِباً بِمَقالِـــهِ جاءَ الغَزالُ بِحُسنِهِ وَجَمالِهِ

أَينَ الجَمالُ مِن اِمرِئٍ أَربى عَلى مُتَعَدِّدِ التِسعينَ مِــن أَحوالِه

إلى آخر الأبيات [٧].

---

[٥] جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الحُميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتّوح الأزدي المتوفى سنة (٤٨٨هـ) ، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،٢٠٠٨: ٣٧٤- ٣٧٥

[٦] جذوة المقتبس : ٣٧٥ .

[٧] البيان المغرب في أخبار الأندلُس والمغرب لابن عذاري المراكشي ،ج٢: ٩٣.

أمّا لقب الجيّاني فنسبةً إلى مدينة جيّان الأندلسية التي تقع بين مدن غرناطة وطليطلة ومرسية. وقد يلقَّبُ بالبكري "فـ البكري نسبة إلى بكر بن وائل، فهو شاعرٌ عربي الأرومة "[٨].

وكي تكتملَ لدينا ملامحُ شخصية الغزال ومذهبه الشعري، فلابدَّ أن نُلقي الضوء على ما يُعيننا في ذلك من أخباره وسماته وسلوكه، عبْرَ عمرهِ الطويل الذي شارف مائة سنة، ومن الأخبار المتصلة بسفارته أو سفارتيه وأبرزها مقابلاته مع ملك الروم أو زوجه وكيف كان الشاعر موضع إعجاب الملكة والحوارات التي جرت بينهما ودعوتها إيّاه لأن يخضب شعرهُ ففعل ذلك استجابةً لرغبتها، وكل ذلك يُعزّز بتعبيره الشعري، إذ إنّها سألته عن سِنِّه حينئذ فقال لها عشرون وقد وخطهُ الشيب، فحين أبدت استغرابها من ظهور الشيب أجابها وما تنكرين من ذلك؟ ألم تري مُهراً ينتجُ وهو أشهب؟ وهذه النادرة تقعُ في سلسلة النوادر التي جُبل عليها الغزال في حياته كلِّها حتى غدت طبعاً من طباعه.

وما يرسم شخصيته أنّه كان في صباه جميلاً، ولأجله - كما مربنا انفاً - لقِّبَ بالغزال، و يبدو أنّه كان فارع الطول، قويّ البنية وقد احتفظ بوسامته واعتدال قوامه وهو في سنٍّ عالية - مثلما رأينا - أما ما عرف عن خُلقُه، فقد كان الشاعر يحيى الغزال موصوفاً بحدِّة الخاطر، وبديهة الرأي، والمداعبة، والفكاهة وحسن الجواب والنجدة، فضلاً عن القدرة الدبلوماسية التي أهّلته لهذه المهمة التي لا يجيدها إلّا القلائل.

وقد بوُلغ فيما نُسب إلى الشاعر بحجة أنه كان هجَّاءً مقذعاً وهذا اتهام لا دليلَ عليه، إذ إنّ سِيَر مهجويه ومناسبات القصائد التي هجاهم بها لا تدعمُ هذا الاتهام ويشاطر الباحثان محقَّقَ الديوان الأُستاذ الدكتور محمد رضوان الداية الذي رفض التعميم غير العلمي الذي أطلقه بعض المعاصرين مستندين الى الأهاجي التي أوردها المؤرخ ابن حيّان التي أوحت إلى أنّ الشاعرَ كان شتامًا هجّاءً وأنّه تناولَ الفقهاء فلم يرحمهم جميعاً، في هذا الصدد يقول الدكتور محمد رضوان الداية: " والذي أراه هنا أنه لا يصحُّ تعميم هذا الحُكْمَ، ولا يصحّ أن نجعلهُ منهجاً يُهتدى بهِ[٩] "

وفعلاً فقد كان مهجووهُ ممن أسرفوا على أنفسهم في استغلال السلطة، وهجاؤه لزرياب" لما وصفَ بهِ هذا المغنِّي من عُجُب وتيهٍ وصَلفَ"[١٠] وهو في كل أهاجيه كان محقًّا مدفوعاً بجُرأته وصراحته، وذلك له لا عليه، وأمر آخر كبير نتيجة التعميم غير العلمي هو اتهامه بالدعابة المفُرطة التي ظنَّ كثير من الدارسين أنّها أوهنت شخصيته، بيد أنَّ هذه التّهُمة هي الأخُرى لا تصمدُ أمام تأمّل انتاجه الشعري وأخباره، فدعابته وروحُهُ المَرحَة الوثّابة لم تزعزعْ تماسكَ شخصيته، وعودةُ إلى عبارة المؤرّخ الحُميدي المذكورة آنفاً تبُعدُ ظاهرة الدعابة المفرطة، قال الحميدي : "كثير القول، مطبوع النَّظمُ في الحكم والجد والهزل، وهو مع ذلك جليلٌ في نفسهِ وعلمه ومنزلته عند أمراء بلده[١١]" ، فهذا بيانٌ ينفي اتهامه بالدعابة المُفِرطة، ويعزز هذا الرصد قول محقق الديوان " إنّ مَن يُعمم أخباره وأشعاره في الدعابة ،المتجاوزة إلى حد الإفراط أحياناً يُخطى في تصوير شخصيته"[١٢].

---

[٨] ديوان يحيى بن حكم الغزال ،جمعهُ وحققهُ وشرحهُ الدكتور محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر بيروت ،ط ١، ١٩٩٣: مقدمة التحقيق: ٧.

[٩] ديوان يحيى بن حكم الغزال : مقدمة التحقيق : ١٣.

[١٠] المصدر نفسه: ١٣.

[١١][١١] جذوة المقتبس :٣٧٤.

[١٢] ديوان يحيى بن حكم الغزال :١٢.

وثمة أخبار تتحدث عن نفي الغزال إلى المشرق بسبب هجائه زرياباً [١٣]" يبدو أنَّ هذه الرواية التي عّول عليها الدارسون كان مصدرُها المقرّي التلسماني (ت ١٠٤١هـ)، ولكن ابن دحية(ت ٦٢٩هـ) في رواية له يؤكد هجاء الغزال لزرياب وبعد أن شكا زرياب للسلطان الغزال أمر السلطان بنفيه خارج الأندلس ولكن كلّمهُ أكابر دولته فعفا عنه، لكن الغزال لم يُطبْ نفساً بالمقام بالأندلس فرحلَ إلى العراق رغبةً، وكان ذلك بعد موت أبي نواس بمدة يسيرة [١٤]. إذن فليس ثمة نفي إلى الشرق، وليست بالباحثين حاجة إلى ذكر كلّ ما تناقلهُ القدماء والمحدثون عن حياته وشخصيته بعدما أغنانا المؤرَّخ الحُميدي ودارسوه المعاصرون مثل الدكتور إحسان عباس ومحقق الديوان، عن تدوين الكثير من هذه الأخبار والمواقف المتضاربة حول أسفارهِ ومجريات حياتهِ.

التجليات الحضارية وآفاقهُا في غزلهِ

المبحث الأول: التجليات الحضارية في غزله عهدي شبابهِ وكهولتهِ

بعد تأمُّل الباحثيَن ديوان الشاعر يحيى بن حكم الغزال ولاسيّما غزلُهُ، وحواراته مع المرأة المتحضِّرة ، وتعبيره عن عاطفته تُجاهها ، والأثر الحضاري الذي يُستشفُّ مما تبقى من غزله الذي وصل إلينا ، أمكننا أن نفرز نمطين من هذه العاطفة تجاه المرأة مع الأخذ بالحُسبان خُلق الشاعر وما جُبلَ عليه من خصال نفسيةٍ مثل ميلهِ إلى الفُكاهة والسخرية والدُّعابة، فضلاً عما وُهِبَ من وسامةٍ واعتدال قوام وسرعة بديهة أهلته لإجادة مهمات دبلوماسية وحضارية لا يقدم عليها إلا القلائل - كما بيّنا.

تَمثَّلَ النمط الأولُ من الغزل والعلاقة مع المرأة في سنّي شبابهِ وكهولته، إذ أظهر ميلاً إلى الانحراف إلى اللهو مع النساء ومجالستهن ومسايرة ما يبدين من غنج وفتنة مع الحفاظ على توازنه وقيمه، ومن هذا النمط ما أظهرته قصائدهُ الغزلية أيام مكوثه سفيرًا في أوروبا أو القسطنطينية، ولقائه ملكها وزوج الملك وإعجاب الملكة به ودعوتها إيّاه لمجالستها وتناول الشراب معها، كذلك دعوتها إياه أنْ يخضبَ شعرهُ، وكلّ هذه المواقف صوّرها غزلُ الشاعر عبر الحوارات الحضارية والوصف الذي حمل سماتٍ غيرَ مألوفة، وسيحاولُ الباحثان - عبر العرض والتحليل- أن يصلا إلى أي مدىً استطاع غزل الشاعرِ يحيى الغزال أنْ يبرزَ تجليات الأثر الحضاري في شعره ، وأن يُعَدُّ الشاعرُ مختلفا عن شعراء عصرهِ.

يُعَدُّغزل الشاعر يحيى الغزال ميداناً لتجلي الحضارة الأندلسية في عصر الإمارة الأندلسية، إذ كان غزلهُ ذا طابعٍ غير مألوف في شعر القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث، ويلحظُ الباحثان الرّقة في التعبير الشعريِ مع التصرف في المعاني الغزلية، إذ يأخذ نفسه على سجيتها ويأتي بالحركة والتصرّف الغزلي دون ما حراجة أو تكلّف ونتأمل هذه المشاهد التي صورتها قصيدتهُ الغزليةُ يقول في جارية اسمها (لعوب): (من الكامل)

لم أنسَ إذ برزت إلـــــيَّ لعوبُ طرباً وحيثُ قميصُها مقلوبُ

وَكَأَنَّها فـــي الدارِ حينَ تَعَرَّضَت ظَبيٌ تَدلـــهَ بِالفَلا مَرعوبُ

تفْترُّ عـــــن دُرّ تناسقَ نظْمهُ فيه لثـاةٌ عـــذبــةٌ وغروبُ

---

[١٣] ينظر نفح الطيب المقري التلسماني، ٢٦٠:٢.

[١٤] المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية الكلبي، المطبعة الأميرية بالقاهرة،١٩٩٤م: ١٣٣.

حاولتُ منهـــــــا رَشفةً فكأَنها عَسلٌ بمـــاءِ سَحابةٍ مقطوبُ

وَدَّعَتكَ داعِيَةُ الصِبـا فَتَطَرَّبَتْ نَـفسٌ إلى داعـي الضَـلالِ طَـروبُ

وظننْتَ عهدَكَ عهدَها في الدهرِ إذْ فَينانُ غُصْنكَ بالشَّباب رطيـبُ

فجَريْتَ في سَنَنِ الصَّبا شـأواً وقد وزَعَتْكَ عَنهُ كَبْرَةً ومشيبُ[١٥]

يلحظ الباحثان في أبيات الغزال تكثيفاً للتجليات الحضارية التي أسهمت في تشكيل المشاهد الحضارية الغزلية في الأندلس في عصر الإمارة الأندلسية، فبروز الفتاة التي حملت هذا الاسم الحضاري الموائم للحياة الأندلسية (لعوب)، وبهذه الهياة غير المألوفة في غزلها المشرقي (برزت طرباً) و (حيث قميصها مقلوب) تصوير هذا المشهد الغرامي وحركتها وهيأة ظهورها إليه بهذهِ الحركات التي تحملُ علامات غير لفظية لها دلالات سيميائية مشتقة من الحركة ولغة الجسد المعبرة عن معانٍ تؤازرُ التجربة الشعرية، وقد أتاح له هذا الانسجام الغزلي مع عناصر الطبيعة أن يصوِّر عاشقته المشبوبةً في ظلال هذا الامتزاج الشفيف بين المرأة ومظاهر الطبيعة الأندلسية فوصفها :مستعملاً أداة التشبيه(كأن)القادرة على الإحاطة بالمشبه

وَكَأَنَّها في الدارِ حينَ تَعَرَّضَت ظَبيٌ تَدلهَ بِالفَلا مَرعوبُ

فالجارية الجميلة ظبي وهو من عناصر الطبيعة التي تشَّبهُ به المرأةُ قديماً وحديثاً ولكن الغزال صوّره في بيئته الأندلسية مضيفاً إليه هذه الحركة المكثفة والعلامةَ غير اللفظية الفاعلة في التعبير (تدله في الفلا مرعوبُ) فالمشهد بأركانه المألوفة (التدلُّهُ، الظبي، الفلاة) لكن التشكيل الصوري الذي صوّرته عدسةُ الشاعر في (هذه اللقطة البصرية غير مألوف). والمتلقي يلحظ هذه الرّقة والعذوبة وتصوير لغة الجسد المعبرة المثيرة وتزداد عذوبة الأبيات وحلاوة جرسها وبعدها عن التكلُّف إذ يقول :

تفْترُّ عن دُرّ تناسقَ نظْمهُ فيه لثـــاةٌ عـــذبـــةٌ وغروبُ

في هذا المشهد الوصفي الحضري مزج الشاعر بين الجانب الحسِّي المنظور من جمال الفن وما يحويه من تناسق وبياض وبين عذوبة الرَّشف التي صورها الشاعر، ، فالمشهد الخاطف مشهدٌ آسرٌ كلفَ الشاعر به فصوره تصويراً طبيعياً منتمياً إلى حياة الأندلسيين وحضارتهم، لذا نحسُّ به يأخذ بالألباب، إذ يوالى تصوير هذا المشهد الغزلي الحسي قائلاً:

حاولتُ منها رشفةً فكأنها عَسلٌ بماءِ سَحابةٍ مقطوبُ

يلحظ الباحثان عودة الشاعر يحيى الغزال - بحكم قدرته الفنية إلى الصورة التشبيهية مُؤثرًا مرة أخرى. الأداة (كأن) التي تفيد المعنى وصدق إحساس الشاعر أكثر من استعمال كاف التشبيه مثلما يرى ابن طباطبا العلوي " كلمّا كان التشبيه صادقاً قلت في وصفه كأنه، أو مقارباً الصدق قلت فيه تراه أو تخاله او يكاد "[١٦]فالأثر الحضاري الأندلسي دفع الشاعر الغزال إلى هذه العذوبة والصدق وعدم الاحتفال بالصناعة اللفظية.

---

[١٥] الديوان :٣٤.

[١٦] عيار الشعر : ابن طباطبا ، تحقيق محمد زغلول سلام ، المطبعة التجارية الكبرى، مصر ١٩٦٥: ٣٢ .

إنّ محاولة الرشفة لا الارتشاف والمحبوبة الجارية (لعوب) عسل قد مزج بماء السحابة، امتزاج هذا الغزل بعناصر الطبيعة الأندلسية. وتزداد الأبيات عذوبةً ويتماسك التشكيل التصويري كلما تتابعت الأبيات فتبدو أجزاء الصورة الحضرية ماثلةً لمتأمل النّص، إذ آثر الشاعر التعبير بوساطة أسلوب التجريد الذاتي ، إذ يجرِّد من نفسه شخصاً يلقي عليه تبعات تفاصيل المشهد الغزالي يقول :

وَدعَتكَ داعِيَةُ الصِبـــا فَتَطَرَّبَت نَـفسٌ إِلى داعي الضَلالِ طَروبُ

وظننْتَ عهدَكَ عهدَها في الدهرِ إذْ فَينانُ غُصْنكَ بالشَّبـــاب رطيـبُ

فجَريْتَ في سَنَنِ الصَّبا شأواً وقد وزَعَتْكَ عَنـــــــهُ كَبْـرَةً ومشيبُ

فأُسلوبُ التجريد الذي هيمنَ على الأبيات الثلاثة الأخيرة بوساطة (وَدَعتْكَ) و (ظننتَ عهدَك) و (فينان غصْنك) و (فجريتَ في سنَن...) و(وزعتكَ عنه..) استعان الشاعر بهذا الأسلوب - أسلوب التجريد الذاتي - وهو من أبلغ الأساليب البلاغية في الشعر العربي وقد ابتدعه امرؤ القيس وتبعه شعراء[١٧] ،هذا التجويد والاسترسال في الغزل الرقيق وتصوير العاطفة المشبوبة، والجنوح الى الصدق والصراحة :

وَدَّعَتكَ داعِيَةُ الصِبا فَتَطَرَّبَت نَـفسٌ إِلى داعي الضَلالِ طَروبُ

ثم يأتي التصريحُ بالغفلة ونسيان ما سيأتي:

وظننْتَ عهدَكَ عهدَها في الدهرِ إذْ فَينانُ غُصْنكَ بالشَّباب رطيـبُ

وبعدها يقع المحذور حيثُ يفاجأ (المخاطبُ) (فجريتَ) و (وزعتْكَ) وهو يعني نفسهُ ،يفاجأ بحلول الشيب والكبر (وزعْتكَ عنه كبرةٌ ومشيب) إذ لا قدرة له، بعد ذلك، على ردِّ ما أحدثه الزمنُ في الجسد المتغيِّر.

إنّ متلقي أبيات الشاعر الأندلسي يحيى بن حكم الغزال المذكورة آنفاً والتي انتظمتْها وحدة موضوعية متسلسلة تسوقها الروح القصصية التي ولع بها الشاعر، يُدرك بعد قراءتها وتأمّل العلامات غير اللفظية التي أظهرتها الأبيات الثلاثة، المشفوعة بأسلُوب التجريد الذاتي - عبر ضمائر المخاطب المتواترة ، يُدرك المتلقي سيطرة هذه العلامات بوساطة (موتيف*) (المشيب) و(الكبر) الذي أكدّه الشاعر في ختام هذه الصورة المشهدية، إذ قال:

فجَريْتَ في سَنَنِ الصَّبا شأواً وقد وزَعَتْكَ عَنهُ كَبْرَةً ومشيبُ

فالمتلقي إذن - على وفق هذه المُعطيات السيميائية التي تعاضدت فيها العلامتان غير اللفظيتين تقدمان خلاصة التجربة الإنسانية، يشارك الشاعر وعيه بتجربتهِ التي ترسمُ حاله الإحباط واليأس، ومن هذا ينبغي أن تكون إدراكات الجسد ذات وظيفة نفسية ومعنوية وعلى هذا "فكينونة الجسد لا يتحدد إلّا بوصفه بنيةً عضويةً

---

[١٧] قائل الشاعر امرؤ القيس:
سَما لَكَ شَوقٌ بَعدَما كانَ أَقصَرا وَحَلَّت سُلَيمى بَطنَ قَوٍّ فَعَرعَرا
الديوان : تحقيق : محمد أبو الفصل إبراهيم، دار المعارف بمصر : ط ٥، ١٩٧٦ : ٦٥.

بايولوجية ، كذلك بنية ثقافية واجتماعية يتواصل فيها البدني بالتصوري ويتعلق فيها البدن والجسد ببدن العالم"[١٨]

ومما يقدِّمهُ هذا النص الغزلي، جنوح الشاعر إلى التعبير الواقعي أمام المحبوبة على شاكلة تعبيره بواسطة التجريد الذاتي المنوّه به وبفاعليته التعبيرية عبر أبياته الأخيرة، إذ يحاول أن يقرّ بخضوعه الى ما يدعون الى الضّلال ثم يعترف - بعد ذلك - بعجزه أمام تحولات جسده بفعل الزمن وإكراهاته يقول :

فجَريْتَ في سَنَنِ الصَّبا شـأواً وقد وزَعَتْكَ عَنهُ كَبْرَةً ومشيبُ

ويرى الباحثان أن أبيات يحيى الغزال الغزلية انطلقت من حركة نفسية صادقة قد بدأت بالتناقض وليس ثمةَ حركةٌ نفسية تبدأ بالانسجام، "والقصيدة في مجالها هي بدء بالإحساس بالتناقض لدى الشاعر وكلّ قصيدة ناجحة لابدّ أن تبدأ من حدود هذه النقطة الحرَجة التي تنطوي – منذ البدء على طاقة حركية هي المسؤولة في الواقع عن الحالة الشعرية التي يجدُ الشاعر نفسهُ داخلها، وهو لهذا يجهد في تجاوز هذه الحالة في العبور منها بواسطة اللغة في الشعر إلى اللاشعر من جديد"[١٩]

ويرى الباحثان أنَّ قرب الشاعر من الطبع وبعدهُ عن التكُّلف كانا وراء واقعيته البارزة في أغراضه كلهِّا، يقول الدكتور إحسان عباس في معرض المقارنة بين شعر ابن شُهيد وشعر الغزال" ولكن الغزال أقربُ إلى الطبع وأبعدُ عن التكلُّف وأعمق تجربة وانفذ نظراً و أغور حكمةً..."[٢٠]. إنّ هذهِ الواقعية والميل إلى الصراحة الصادمة أحياناً ، والمسندة بالتعليل، فضلاً عن ميلهِ إلى الجانب القصصي ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ،هي مرتكز السمات التي اتسم بها شعر الغزال عامةً.

ومن تجليات الأثر الحضاري في غزل الشاعر يحيى الغزال ما نطالعه في قصيدةٍ رائية له وهي بمثابة رسالة شعرية كتبها إلى أهله وذوي ودّه وقد بعث بها إلى قرطبة، ويذكر - خاصةً - من ارتبط بها فكانت هوىً أو شريكة حياته، وكنّى عنها بشعاع الشمس) نجتزئ منها ما يخصّ حديثنا [٢١]: (من الطويل)

كَتَبتُ وَشَوقٌ لا يُفـــارِقُ مُهجَتـي وَوَجــدي بِكُم مُستَحكَمٌ وَتَذَكُّـري

بِقُرطُبَـــــةٍ قَلبـي وَجِسمي بِبَلدَةٍ نَأَيتُ بِها عَن أَهلِ وُدّي وَمَعشري

سَقى اللَهُ مِـن مُزنِ السَحائبِ ثَرَّةً دِيارَكُم اللاتـي حَوَت كُـلَّ جُؤذُرِ

بِحَقِّ الهَوى أَقرِ السَلامَ عَلى الَّتي أَهيمُ بِها عِشقاً إِلى يَومِ مَحشَري

لَئِن غِبتُ عَنها فَالهَوى غَيرُ غائِبٍ مُقيمٌ بِقَلبِ الهائِـــــــمِ المُتَفَطِّرِ

***موتيف: مفردة تعني الحركة ،والإشارة والإلحاح، واصل الكلمة من اللغة الفرنسية.**

[١٨] النص والجسد والتأويل: فريد الزاهي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط ٢ ، ١٤٢٨هـ، دار الكتب العلمية ، بيرت لبنان : ٣٧.

[١٩] الشعر الحر في العراق حتى سنه ١٩٥٨ ، يوسف الصائغ، ٢٢٦.

[٢٠] تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة دار الثقافة – بيروت، ط ٢، ١٩٦٩ :١٦.

[٢١] الديوان :٥٥.

وبعد هذه المشاهد الغزلية المألوفة في شعرنا العربي والأساليب اللغوية التي وظّفها الشاعر سالكا أسلوب الرقة والوضوح متخلياً عن العناية بالمبنى الشعري، ينقلنا الشاعر يحيى الغزال إلى ممارسات غزلية لا يجد فيها حرجًا انسجاماً مع طبيعة توجهه الحضاري المتكيء، على المشاهد الحية الممزوجة مع مظاهر الطبيعة الأندلسية :

كَأَن لَم أَبِت في ثَوبِها طولَ لَيلَةٍ إِلى أَن بَدا وَجهُ الصِباحِ المُنَوِّرُ

وَعانَقتُ غُصناً فيهِ رُمّانُ فِضَّـةٍ وَقَبَّلتُ ثَغراً ريقُـــهُ ريقُ سُكَّرِ

أَأَنسى وَلا أَنسى عِناقَكِ خالِياً وَضُمّي وَنُقلي نَظمُ دُرٍّ وَجوهِرِ

في الأبيات الثلاثة المذكورة آنفاً من صراحة الغزل، وتجسيد المشهد ما يتماشى مع البيئة الأندلسية وطبيعة مكونات مجتمعها، إذ إنّ بعض عناصر المجتمع الأندلسي ونتيجة اختلاطها مع بعضها الآخر، لا ترى بأساً من شيوع هذا اللون من الغزل أو انشاده ، والجديد الذي يومئ إلى المسيرة الثقافية في الأندلس هذه المشاهد غير الرتيبة على شاكلة:

كَأَن لَم أَبِت في ثَوبِها طولَ لَيلَةٍ إِلى أَن بَدا وَجهُ الصِباحِ المُنَوِّرُ

إذ كانت هذه الممارسة الغزلية في المشرق العربي تمارس سطواً أو تجاوزاً على القيم والأعراف التي ألفَها المجتمع، أمّا في عصر الإمارة الأندلسية - فليس ثمةَ حرج في ذلك، وعدا ذلك فمعانقة الشاعر لحبيبته التي اشبهت غصناً حوى رمان فضةٍ في إشارة إلى نهديها، لهي صياغة حضارية. وإن المعنى وإن كان مألوفاً لكنه عُرض بثوب جديد وأسلوب مؤثر.

والأنموذج الأخير الذي نعرضه في هذا النمط الأول من غزله والذي يجسد الأثر الحضاري في تعبيره الشعري بناءً ومضامين، يمثله قصيدته الذائعة التي قالها في أثناء وجوده سفيراً لدولة الأندلس، إذ أرسله الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى القسطنطينية أو شمال أوربا * وقد حصل على أُنس مع السلطان وزوجنه، ودعته زوجة السلطان إلى الشراب معها ومع ابنها الجميل وأعلن تحفظه لعدم جواز تلبيةَ الدعوة لكونه مسلماً ، وفي كلِّ ذلك جاءت القصيدة معبِّرة عن هذا الطوَّر الغزلي المرتبط بشبابه وكهولته يقول[٢٢] : (من الوافر)

وَأَغيدَ لَيِّنَ الأَعطـافِ رَخصٍ كَحيلِ الطَرفِ ذي عُنقٍ طَويـلِ

تَرى ماءَ الشَبابِ بِوَجنَتَيــهِ يَلوحُ كَرَونَقِ السَيفِ الصِقيــلِ

مِنَ ابناءِ الغَطارِفِ قَيصَرِيَّ الـ ـعُمومَــةِ حينَ يُنسَبُ وَالخُؤولِ

كَـــأَنَّ أَديمَهُ نِصفاً بِنِصفٍ مِـنَ الذَهَبِ الدِلاصِ أَو الوَذيلِ

وَرُبَّتَما أُكَرِّرُ فيـــهِ طَرَفي فَأَحسَبُ أَنَّـــهُ مِـن عَظمِ فيلِ

---

[٢٢] الديوان : ٦٨- ٦٩.

*** بينا في مقدمة البحث اختلاف المؤرخين في تحديد الجهة التي بُعثَ إليها الغزال سفيراً.**

عَلـــى قَدٍّ سَواءٍ لا قَصيرٍ فَتَحقِرُهُ وَلا هُـــــوَ بِالطَويلِ

وَلَكِن بَينَ ذَلِكَ فـي اِعتِدالٍ كَغُصنِ البانِ في قُربِ المَسيلِ

يَحِنُّ إِلَـــيَّ مُطَّرِفاً لِشَكلي وَيُكثِرُ لـــــي الزِيارَةَ بِالأَصيلِ

أَتى يَومـــاً إِلَيَّ بِزِقٍّ خَمرٍ شَمولِ الريــحِ كَالمِسكِ الفَتيلِ

لِيَشرَبِها مَعي وَيَبيتَ ِعندي فَيَثبُتَ بَينَنـــا وُدُّ الخَليـــــلِ

وَجاءَت أُمُّـهُ مَعَـــــهُ فَكانا كَأُمِّ الخِشفِ وَالرَشَأِ الكَحيـــلِ

فلنقف عند هذا النص الغزلي متأملَينِ الأثر الحضاري الذي أبرزتهُ قصيدته التي قالها في أيام سفارته في بلاد النورمان وفي حضرة زوج الملك التي دعته إلى الشراب معها ومع ابنها البارع الجمال على مرأى ومسمع من زوجها الملك.

وليست بنا حاجة إلى شرح المضامين التي عبرت عنها القصيدة بقدر حاجتنا إلى التجّليات الحضارية التي يريد البحث أن يُشير إليها في هذا النمط من الغزل المختلف عن غزل الأندلسيين في القرنين الثاني و الثالث الهجريين.

فعلى صعيد اللغة الأغيد هو الوسنان المائل العنق[٢٣] ، والأعطاف جمع عطف ،وهنا تغزلٌ رقيقٌ، والعِطْف وهو أحد جانبي الرجل من لدن رأسه إلى وركيه ،[٢٤]و التشبيه الجسدي موائم لمقتضى الحال والمناسبة وموقف الشاعر في الأجواء الأجنبية ، فالموصوف (من أبناء الغطارف) وهو (قيصري) عماً وخالاً ، وجسد هذا المُتغزل به نصفهُ من الذهب البراق اللين ونصفه الآخر من اللجين تأكيداً على البياض والاصفرار المنبعث من جسده الذهبي اللون، وكلَّ أجزاء هذه الصورة الغزلية الحسية، من طرفي التشبيه والأداة (كأن) وظلال اللونين الأصفر والأبيض، كلُّها ذات منحىً حضريٍ لاءمت البيئة الأجنبية التي تتيح هذه المشاهد الحضرية بل تستحسنها.

وتتزايد أجزاء الصور الغزلية الحسية المرتبطة بالواقع الذي أحاط بالشاعر فتعاملَ معه بأدوات تعبيرية حضارية في البناء والمضمون، حتى إنَّه خلقَ اجواءً بينه وبين المُتغزل بها لم تنته في لحظات أو ليالٍ عابرة:

يَحِنُّ إِلَيَّ مُطَّرِفاً لِشَكلي وَيُكثِرُ لي الزِيارَةَ بِالأَصيلِ

فمفردة (يحنُّ) تفيد الاستمرارية وكذلك (ويكثر لي الزيارة في الأصيل) وهكذا تتوالى التعابير الوصفية الغزلية في منحىً قصصيٍّ يؤكد روحها الحضارية ونبعها الصافي من فيض ثقافة الشاعر الأندلسي يحيى بن الحكم الغزال.

---

[٢٣] ينظر مختار الصحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ،دار الكتاب العربي بيروت ، لبنان ، (د-ت) : ٢٨٦ ماده (ع ي د)

[٢٤] المصدر نفسه :٢٨٦.

و بعد :

فيحسن بنا أن نشير إلى غزله الذي أورده مقدماتٍ لبعض أغراضهِ على شاكلة مقدمته الغزلية الرقيقة التي صدَّر بها قصيدة مديح، مدح فيها الأمير عبد الرحمن بن الحكم (حكم ٢٠٦هـ - ٢٣٨هـ) والتي أعجبت الأمير فأطلق سراحه من السجن وفيها قال[٢٥]: (من السريع)

بَعضَ تَصابيكَ عَلى زَينَبٍ لا خَيرَ في الصَبوَةِ لِلأَشيبِ

أَبعدَ خَمسينَ تَقَضَّيتَهـــا * وافِيَةً تَصبـو إِلـى الرَبرَبِ

كُلِّ رَداحِ الرَدفِ خُمصانَـةٍ كَالمُهرَةِ الضامِرِ لَـم تُركَبِ

أَو دُرَّةٍ ساعَةَ ما اِستُخرِجَت لَم تُمتَهَن بَعـــدُ وَلَـم تُثقَبِ

مَشرَبَةَ اللَونِ مُتوعِ الضُحى صَفراءَ بِالآصـــالِ كَالمُذهَبِ

المبحث الثاني: الأثر الحضاري في غزله في أثناء تجربته وخبرته

ومن تجليات الأثر الحضاري في غزله أو علاقته بالمرأة، النظرات الساخرة المستندة الى النزعة الفلسفية المنبثقة من عمق تجربته ، وهذه كلّها تجليات حضارية أفرزتها تجربته وجدّته، إذ إن السخرية طبع قد جُبل عليه الشاعر وهي حاضرة في أقواله وأفعاله. وَلنُصغ إلى هذا الأنموذج الذي تمثِّلهُ هذه الحوارية المتخيَّلة لنقع على سخرية الشاعر الغزال ونظراته الفلسفية يقول :[٢٦] [من الكامل]

قالَت أُحِبُّكَ قُلتُ كاذِبَـــةٌ غُرّي بِذا مَـن لَيسَ يَنتَقِد
هَذا كَلامٌ لَستُ أَقبَلُـــــهُ الشَيخُ لَيسَ يُحِبُّهُ أَحَـــدُ
سَيّانُ قَولُـكِ ذا وَقَولُكِ إِنْ الريحَ نَعقِدُهـــــا فَتَنعَقِدُ
أو أَن تَقولي النــارُ بارَدِةٌ أَو أَن تَقولي المــاءُ يَتَّقِدُ

في الأبيات سخريةٌ ممزوجةٌ بالتجربة المرَّة التي عاشها الشاعر الذي بلغ من الكبرَ عتيا لذا لجَأ الى السخرية والتكذيب، إذ واجه المرأة المدَّعية حبّهُ بهذه المفردة الصادمة (كاذبة):

قالَت أُحِبُّكَ قُلتُ كاذِبَةٌ غُرّي بِذا مَن لَيسَ يَنتَقِد

---

[٢٥] الديوان : ٤٠ ــ ٤١
***معاني بعض المفردات: تقضيتها : استوفيتها : يخاطب نفسه بوساطة أسلوب التجريدة، الرواح : الثقيلة الأوراك التامة الخلق ، والخمصانة: الضامرة البطن والحشا متوع الضحى : آخر الضحى وابهاه من الاشراق يصف إشراقة صاحبته ويشبهها بالدنيا وقت الضحى العالي**
[٢٦] الديوان : ٤٥.

وبهذا المستوى من الصراحة وعدم الاكتراث للمرأة المحاورة ومواجهتها بالسخرية المعللة ادعاءاتها كانت المحاورة غير المألوفة التي أفضت به الى أن تميز شعره بخاصيتين عزيزتين في الشعر الأندلسي وها السخرية التي عرف بها، والنظرة الفلسفية التي تُفضي إلى التشاؤم والشك وسوء الظن ،والسخرية تعبير عن حالة نفسية وردّ فعل ، وقد يكون الساخر شاعراً أو كاتباً أو خطيباً ، وهي تحمل هدفاً في أعماقها يحاول الساخرُ أن يوصلهُ إلى الذي يسخرُ منه.[٢٧]

إنَّ السخرية من باب الإضحاك فقط تُعدُّ هزلاً خالياً من التشفِّي ، وربما هذا الذي نجدهُ في مجمل شعر الشاعر الأندلسي يحيى بن حكم الغزال، لأن الغزال كان يُؤثر عنصر الإضحاك لكونه أبلغ في الوصول إلى تحقيق مقاصده[٢٨].

ومما يتصل بالعلاقة مع المرأة تدخل فلسفته الشكية العائدة إلى نظرته السلبية. التي لم يألفها اسلافه أو معاصروه على شاكلة قوله المشهور الذي يؤثرُ هذه النزعة المتوارية خلف طول تجاربه التي أفضت إلى هذا التردُّد وزعزعة الثقة والاطمئنان يقول[٢٩]: [من الكامل]

يا راجِياً وُدَّ الغَوانــي ضلَّــةً فَفُؤادُهُ كَلَفاً بِهِنَّ مُوَكَّـــــلُ

لا تكلفَنَّ بَوَصلِهِنَّ فَإِنَّمــا الـ كَلفُ المُحِبُّ لَهُنَّ مَن لا يَعقِلُ

فَإِذا نَزَلتَ فَإِنَّ غَيرَكَ نـــازِلٌ ذاكَ المَكان وَفاعِلٌ مــا تَفعَلُ

أَو مَنزِلٌ المُجتازِ أَصبَحَ غادِياً عنهُ وَيَنزِلُ بَعدهُ مـــن يَنزِلُ

أَو كَالثِمارِ مُباحَةً أَغصانُهـــا تَدنو لِأَوَّلِ مَـــن يَمُرُّ فَتُؤكَلُ

أَعطِ الشَبيبَةَ لا أَبا لَكَ حَقَّهـــا مِنها فَـــإِنَّ نَعيمَها مُتَحَوِّلُ

وَإِذا سُلِبت ثِيابَهـــا لَم تُنتَفَعُ عِندَ النِساءِ بِكُلِّ مــا يُستَبذَل

فواضح أنّ القصيدة ناطقة بنزعة الشاعر السلبية المتأتية من طول تجربته التي خلّفت هذا التشاؤم المفضي إلى هذه النظرة السلبية المتأثرة بمظاهر اختلاط المرأة بالرجل وكثرة الجواري، وما أتيح لعناصر المجتمع الأندلسي من مجالس اللهو والغناء ، وقد صادف كلُّ ذلك طبيعة الشاعر الساخرة، وميله المفرط إلى الفكاهة ميلاً غدا سمة بارزة في شخصيته، وقد علَّق الباحث الدكتور إحسان عباس على هذه القصيدة قائلاً : وحين تبلغ سخريته هذا المستوى " وهو يتناول مقطوعة دالية للشاعر أولها قوله :

قالَت أُحِبُّكَ قُلتُ كاذِبَةٌ غُرّي بِذا مَن لَيسَ يَنتَقِد

---

[٢٧] ينظر: المعجم الأدبي / جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٧٩: ٣٩.

[٢٨] الديوان: تنظر مقدمة المحقق:.٢٤
[٢٩] المصدر نفسه : ٦٥- ٦٦.

" نلتقي بفلسفته الشكية الجانحة إلى التشاؤم وسوء الظن، وهذا هو حصاد تجربة طويلة جعلته يقول[٣٠]"
: ثم يورد القصيدة المذكورة آنفاً ويعجب الباحثان من سخريته في هذا المجال - نفي علاقته بالمرأة اذ بلغت مستوى لم نرَ له مثيلاً ولاسيمّا في مواقف جادة لا تنسجم مع المشاعر الساخرة على شاكلة قوله [٣١]:

وَهيَ أَدرى فَلِماذا دافَعَتني بِمُحـــالِ

أَتُراني أَقتَضيهـــا بَعدُ شَيئاً مِن نَوالِ

وهذه السخرية المفرطة سبقها الشاعر يحيى الغزال بمعنى عجيب وغريب كما يقول محقق الديوان[٣٢]:

وَسُلَيمى ذاتُ زُهدٍ في زَهيدٍ مِن وِصالِ
كُلَّمــا قُلتُ صِليني حاسَبَتني بِالخَيـــالِ

وهذه الأبياتُ الأخيرة التي سقناها شاهداً على نزعته الساخرة في المواطن كلَّها هزليها وجديها، مجتزأة من قصيدته الواردة في المصادر الأدبية والتاريخية والتي وصف فيها سفره إلى بلاد النورمان بعد تكليفه من قبل الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط، وقد رافقه يحيى بن حبيب - وفيها يصف مالقيهُ من أهوال في أثناء ركوبه البحر إذ هاج البحر وعصفت بهم ريح شديدة فأنشأ الشاعر يقول[٣٣]: (من مجزور الرمل)

قالَ لي يَحيى وَصِرنا بَينَ مَوجٍ كَالجِبـــالِ
وَتَوَلَّتنـــــــا رِياحٌ مِن دَبورٍ وَشَمَـــــالِ
شَقَّتِ القِلعَينِ وَانبـــ تَت عُرى تِلكَ الحِبالِ
وَتَمَطّى مَلَكُ المَـــــو تِ إِلَينا عِـــن حِيالِ
فَرَأَينا المَوتَ رُأيَ الـ عَينِ حالاً بَعدَ حـــالِ
لَم يَكُن لِلقَومِ فينـــــا يا رَفيقي رَأسُ مـالِ

وقد تناول دارسون كثيرون هذه القصيدة من جوانبَ كثيرةٍ، إذ درسوها شاهدًا على اتقان الشاعر يحيى الغزال للقصص الشعري وكون هذا المنحى يُعَدُّ من ابرز سماته الشعرية[٣٤]. وتناولها آخرون من زاوية حضور الدعابة في شعره حتى في أحرج المواقف إذ يشيرون إلى بيته:

لَم يَكُن لِلقَومِ فينا يا رَفيقي رَأسُ مالِ

وغنيٌّ عن البيان أنَّ الذي قادنا إلى هذا الاستطراد، الإشارة إلى سخريته الحاضرة في شعرة ومواقفه - مثلما رأينا في الشواهد المذكورة آنفاً وما دمنا نتحدث عن الأثر الحضاري في شعره الغزلي في المرحلة الثانية

---

[٣٠] تاريخ الأدب الأندلسي : ١٦٦ - ١٦٧
[٣١] الديوان : ٧٢.
[٣٢] المصدر نفسه : ٧١ .
[٣٣] المصدر نفسه :٧١ .
[٣٤] تاريخ الادب الاندلسي - عصر سيادة قرطبة : د. احسان عباس : ١٧٩

التي تشكِّل عمق تجاربه التي أفرزت هذه المضامين الساخرة والحوارات غير المألوفة التي وقفنا عندها و المتسمة بالسخرية اللاذعة المشفوعة بروح الفكاهة، ما دمنا كذلك، فلا بدّ أن نشير إلى أن مميزات شعره عامةً وغزله بشكل خاص قد طبعت بسمات يهتدى إليها المتلقي بعد التأمّل، وأبرزها: أنّ هذا الغزل بعامته، ولاسيمّا في مرحلته الأولى، قد تميز بالسهولة والقدرة على الإيصال وقلَّة احتفاله بصقل المبنى الشعري كما يُعبِّر الدكتور إحسان عباس[٣٥] ، فضلاً عن حرارة التعبير والتدفق، والرقة.

ويمكن للباحثَينِ أن يعبرا عن خطابه الشعري لاسيّما غزله في مرحلته الأولى في شبابه ومدة سفارته وقبل ان يهاجمه الهرم وتهدم الجسد، بخطاب الظرف، لأنّه بوساطة هذا الخطاب استطاع أن يستميل القلوب في بلاط ملك النورمان، إذ لما سمعت الملكة بذكر الغزال وظرفه أرسلت إليه تطلبُ ان يواجهها، فلما قابلتهُ أعجبت به كثيراً، واستطاع بإطرائه لها وإطنابه في وصف جمالها أن يجتلب محبتها وأن ينال منها فوق ما أراد[٣٦]

إذن هذه السمات من الليونة، وسرعة الخاطر، والتمرُّس بأساليب الكلام، والواقعية التعبيرية وطرافة مضامينه وطرافه شخصيته[٣٧] وخطاب الظرف الذي ورد بهذا التركيز، كلّها تقع في إطار التجليات الحضارية التي أراد البحث تأكيدها.

خاتمة البحث ونتائجه

الحمد لله ثم الحمد لله ذي الحَوْلِ والطَّوَلِ، المنعم المنفصل، وبعد إتمام هذه الدراسة الموجزة حول (الأثر الحضاري في غزل الشاعر الأندلسي يحيى بن حكم الغزال) وقد اهتدينا - عبر تأمل ما تبقى من نصوصه الغزلية وأخباره الموثوقة - إلى نتائج نختم بها بحثنا المتواضع ، يقف في طليعتها:

١- إنَّ الشاعر الأندلسي يحيى بن حكم الغزال، و على وفق ما وقفنا على شعره وتميزِّه بخصائص فنية عرف بها، وطباع سلوكية جُبل عليها الشاعر، على شاكلة الدعابة وخطاب الظرف، والسخرية، يمكن للباحثين أن يعدا الشاعر مختلفاً عن معاصريه في هذا الفن.

٢- لاحظ الباحثان تجليات الأثر الحضاري في غزله في مرحلتيه العمُريتين المنوَّه بهما في صفحات البحث سواء في التعبير الشعري أو السلوك المشفوع بالحركة الساخرة والدعابة وعنصر الإضحاك حتى في أحرج المواقف .

٣ - عُدَّ غزل الشاعر يحيى بن حكم الغزال ميداناً تتجلّي فيه الحضارة الأندلسية في القرنين الثاني والثالث الهجريين، إذ كان هذا العزل انعكاساً للواقع الحضاري في الأندلس، وهو خير من يمثل حياة الأندلسيين آنذاك، لطرفة شخصيته ورقة شعره ولاسيّما غزله الذي وصل إلينا موثقاً مشفوعاً بالأدلة، و حوادثه الساخرة الممزوجة بالدعابة والفكاهة الاضحاك.

٤- أسهمت الطبيعة الأندلسية الموصوفة، التي ولع بها الشاعر، في تجسيد المعطيات الحضارية في غزله.

---

[٣٥] المصدر نفسه :١٦٥ .
[٣٦] المطرب من أخبار أهل المغرب : ابن دحية ،تحقيق إبراهيم الأبياري و آخرين ، القاهرة ، ١٩٥٤ : ١٤٣.
[٣٧] ينظر: فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة .. حكمة علي الأوسي، ساعدت جامعة بغداد على طبعه، مطبعة سلمان الأعظمي : ٩٩.

٥- تجاوز الشاعر في اكثر شعره أسلوب حسن التعليل مركزاً على الواقعية التعبيرية والتحليل.

٦- إنّ الإغراق في الحضارة المادية في البلدان الأوربية التي عمل فيها الشاعر سفيرًا، دفعه إلى التركيز على الجانب الحسي في تغزله بالمرأة ولاسيما الأميرة (تود) زوجة الملك الدانماركي وبذلك يكون الغزل الحسي بالمرأة شكلاً من أشكال الحضارة على شاكلة افتتان الشاعر بجسد المرأة وابنها مثلما رأينا في الشواهد الشعرية التي وقفنا عندها. والتي تضمنت - أحياناً - غزلاً غلمانياً، وكان ذلك سببه البيئة المسيحية التي عَمِل فيها طويلاً والتي تعج بكثرة غلمان الأفرنج المشهورين بالملاحة والجمال.

٧- تسربت إلى نفسه نزعة شكية متأتية من طول التجربة وتزعزع الثقة بالمرأة بوصفها جسدًا - لذا جرته نظرته الفلسفية إلى التشاؤم والنزعة الانتقادية والنظرات السلبية تجاه المرأة والآخرين.

٨- لوحظت واقعيته التعبيرية في طليعة سماته في الفن والسلوك، الأمر الذي جرّ بعض دارسيه الى عده هجّاءً وشتّامًا وهو ليس كذلك، بل كان يتصدى للمنحرفين والظالمين وإن كانوا قضاة أو متنفذين أو المغرورين من ذوي العجب على شاكلة زرياب المغني المشرقي المعروف.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم جلَّ من أنزلهُ**
- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : ابن عذاري المراكشي:**
- **تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة ، الدكتور إحسان عباس، طبعة ثانية منقحة ومزيدة، دار الثقافة بيروت، لبنان ، ١٩٦٩ م**
- **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس : الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتّوح بن عبد الله الأزدي، المتوفى(٤٨٨ هـ)، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٨م .**
- **الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوروبا ، توفيق سلطان الفكيكي (بحث) مجلة (ثقافتنا) للدراسات والبحوث المجلدة العدد/ ٢٠ السنة :٢٠١٠م**

ديوان امرئ القيس: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ط ٥، ١٩٦٤

- **ديوان يحيى بن حكم الغزال - جمعهُ وحققهُ وشرحهُ : الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، دار الفكر دمشق - سوريا، الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ١٩٩٣ م.**
- **الشعر الحرّ في العراق منذ نشأته حتى عام ١٩٥٨م، يوسف الصائغ، مطبعة الأديب البغدادية / بغداد، ١٩٧٨م**
- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حمَّاد الجوهري، تحقيق . د - أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملاين هـ، ١٩٨٧م.**
- **عيار الشعر : ابن طباطبا العلوي : تحقيق طه الحاجري، محمد زغلول سلا م، المطبعة التجارية الكبرى، محرم ١٩٦٥.**
- **فصول في الأدب الأندلسي فى القرنين الثاني والثالث للهجرة . الدكتور حكمت على الأوسي - ساعدت جامعة بغداد على طبعه ، مطبعة سلمان الأعظمي،**
- **في الأدب والحضارة : محمد الحسناوي، المكتب الإسلامي بيروت، دار عمار، عمان، ط ١٩٨٥ م**
- **لسان العرب : جمال الدين محمد بن منظور (ت ٧١١ هـ) إعداد وتصنيف يوسف خياط ، ونديم مرعشلي، دار لسان العرب : بيروت ،ط ٣ ، ١٩٧٠م.**
- **المُطرب من أخبار أهل المغرب ، ابن دحية الكلبي ، المطبعة الأميرية**

- بالقاهرة ، ١٩٥٤ .
- مختار الصِّحاح : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، (د.ت)
- المعجم الأدبي : جبّور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت. لبنان، ط ١، ١٩٧٩م
- مقدمة ابن خلدون العلامة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، دار النهضة للنشر، مصر، ٢٠١٤ م
- النص والجسد والتأويل : فريد الزاهي، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ،ط ٢، ١٤٢٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،
- نفح الطيب فيس غصن الأندلس الرطيب في ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، أحمد المقرّي التلمساني ، تحقيق إحسان عباس ' دار صادر بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م.